



الأحداث الكبار التي تعصف بنا في المنطقة، تزلزل بعض أفكارنا العميقه وتهز جزءا من قناعاتنا، محدثة خلخلة غير مسبوقة للصور الذهنية عن الذات وما ينفي لها وعليها، فضلا عن صور الآخر وما له وما عليه، سواء كان من "الآخر القريب" أو من "الآخر البعيد".

من الطبيعي جدا أن أفكارنا تتطور وتتغير وفق مستجدات الحياة ومتغيراتها، غير أن الوضع الراهن يومئ إلى ما هو أكبر من ذلك، فمعمارنا الفكري والاجتماعي بات قابلا للتقويض باهتزازات متراكمة، وهي اهتزازات مصممة على ما يبدو لتأسيس "مكارثية عربية" (نسبة إلى ممارسات جوزيف مكارثي الأميركي، في اتهامه المغلظ للخصوم بالخيانة والتآمر، في ستينيات القرن العشرين). وهذه المكارثية العربية من شأنها دكُ البناء الداخلي على المستويات القومية والقطبية (الوطنية).

سبق للعرب أن عاشوا مكارثيات في عقود خلت، بيد أن المكارثية الحالية قد لا تكون مسبوقة في حجمها ومؤججيها وتأثيراتها، فثمة تشظية فكرية مجتمعية بالغة الخطورة، وأضحت أناس "يتقابلون" في الأفكار، ويتكاررون في الأنس، ويتنافرون - وهما - في المصالح، وربما في الغايات والمصير، مما يخلق أنساقا من "الذوات المجرمة" للخصم الفكري والسياسي؛ برميه بكل نقيصة واستعداء المكون الحكومي - الأمني والديني - المجتمعي، وتشويه صورته داخل البيت وخارجيه. ولنا على ذلك شاهد جلي في سياق الانقلاب التركي الفاشل.

والملقى، أن الشواهد تشير إلى أن هذه المكارثية في ازدياد مطرد، وقد تحول إلى كرة متدرجة ملتهبة، لا قبل لأحد بوقفها أو التقليل من التهامها لوحكتنا وتماسكتنا وفعاليتنا على كافة المستويات.

مكارثيات نخب وعوام:

لا أظن أن هناك قطراً عربياً سالماً اليوم من لون أو آخر من المكارثية، وإن كانت بأقدار متفاوتة. ومن المكارثيات المتفاقمة ما يحدث في دول الخليج العربي، إذ لم تعد "المكارثية الخليجية" مقتصرة على ما يمكن وصفه بـ"مكارثية النخب" أو "مكارثية المثقفين"، صغاراً وكباراً، مشهورين ومغمورين، حيث تجاوز ذلك، ليشكلّ نوعاً من "مكارثية العوام"، وشبكات التواصل الاجتماعي تجّعّب بينهم "التأثيرات الدينية" (عبر المكارثيين الدينيين) وـ"الجرائم الوطنية" (عبر المكارثيين الوطنيين). ومثل هذا الأمر، ليس جديداً، فأنا أرقبه منذ بضع سنوات، غير أن زيادته في الآونة الأخيرة قد تخرجه من نمط المثاليات الحسابية إلى الهندسية (أي بأنماط متفاوتة).

ومن الأعراض المخيفة، أن كل طرف والغ في الممارسة المكارثية لا يعد نفسه جزءاً منها ولا صانعاً لها، وإنما يكتفي بتأليف التهم لخصمه والتظاهر بأنه "مجني عليه مكارثياً". وهذا يعني استفحال هذه الظاهرة في عالمنا العربي، وبخاصة أن بعض الأطراف الرسمية ما زالت تعول على سياسة "فرق لنسد"، مما يدفعها لإلهاب نار المكارثية، فهي تشجع بعض وسائل الإعلام وبعض الأقلام على هذه الممارسات الرديئة، وبعضها يكتفي بغض النظر عن "المكارثيين المتطرفين"، الذين تحركهم بوعاً داخلياً مؤدلة ضد خصومهم، مع شيوخ قوالب متنوعة في الفجور في الخصومة.

إذ لا دليل يساق على أكثر التهم الموجهة، مع التغافل عن الحقائق أو المعلومات التي تقلل من شأن هذه التهم أو تدحضها تماماً، ومن ذلك على سبيل المثال، اعتماد بعض الكتاب الأكاديميين على مصادر ضعيفة، مع إدراكهم لضعفها في المنهجية والتحليل وربما في المصداقية أيضاً، وقد يكون بعضها معادياً للعرب وكارها لهم. وهنا؛ فتش عن الانحياز المعطوب، أخلاقاً ومنهجاً.

حرب أهلية فكرية:

التهويل في توصيف الظواهر أمر مضر، خصوصاً مع تشويبه للحقائق، وربما يستجلب معه توهيناً للثقة التبادلية وإضعافاً لرأس المال الاجتماعي، وفي كل هذا خسائر مجتمعية فادحة. وفي الوقت ذاته، فإن بخس الظواهر حقها والتقليل من حجمها هو الآخر مضر وجالب لخسائر قد لا تقل عن مسار التهويل، وقد تزيد.

ومن أجل هذا، فنحن مطالبون بالتوزن والدقة في التوصيف، فلا تهويل ولا بخس للظواهر التي تقوم بتوصيفها. ومع استصحاب هذا القيد المنهجي الأخلاقي، فإبني أرى بأن المكارثية التي نعيشها مرشحة لأن تقود بعض مجتمعاتنا إلى ولادة "أم الحروب"، وأعني بها: "الحرب الفكرية الأهلية"، وربما بتنا نشاهد مثل هذه الحرب في بعض الأقطار، وأنها على مشارفها. وهذه الحرب قد تجر إلى ما هو أسوأ منها.

قد لا يتفق البعض معي في توصيفي لهذه الظاهرة من جهة حجمها وخطورتها، هذا لا يهم كثيراً، بيد أن من الضوري أن نتفق على أنها باتت مقلقة على أقل تقدير، وبأنها تتطلب معالجات سريعة حاسمة، بدءاً بالكف عن تشجيع ممارساتها من قبل المسؤولين على الطيف الرسمي، إن بشكل مباشر أو غير مباشر، والسعى لتجريم دور "المكارثيين المتطرفين"، وإخلاء الساحة -قدر المستطاع- من أمثل هؤلاء في جانبي "التأثيرات الدينية" وـ"الجرائم الوطنية"، والتأكيد على أن الأصل في الناس الديانة والوطنية.

المكارثيون وتنكّب الحقائق:

يبرهن المكارثيون على أنهم يتذمرون على الحقائق ويغمضون عيونهم عن المعلومات التي تخالف "تفكيرهم الغربي" في أحداث كثيرة، ولعل منها الانقلاب التركي؛ إذ يعمد "المكارثيون الدينيون" إلى المبالغة في إظهار الفرح والتأييد ونسبة الإنجاز للرئيس التركي "رجب طيب أردوغان"، وسوق التهم لكل من يبدي انتقاداً رصيناً موضوعياً لبعض الممارسات السياسية الحالية أو

المستقبلية لأردوغان؛ في مسار تدريسي للأشخاص والكيانات.

وفي الضفة الأخرى، يجتمع "المكارثيون الوطنيون" إلى صناعة لهم من نوع آخر، وعلى رأسها جعل كل من وقف ضد الانقلاب على أنهم "إخوان مسلمون" أو متعاطفون معهم. وهنا استذكر مقوله ساخرة لأحد الأصدقاء السعوديين، حيث قال في رسالة خاصة في مجموعة واتس آب ليلة الانقلاب: يا جماعة اكتشفت اكتشافا خطيرا في العائلة؛ اكتشفت أنهم إخوان، فوالدي "العلماني" إخواني، فهو ضد الانقلاب، وأمي أيضاً فهي تصلي كل اليوم، وكذلك شقيقاتي!

وكل طرف مكارثي، يصنف الناس بطريقة تخدم أجندته الأيديولوجية؛ إذ يتوجه المكارثيون الدينيون إلى حشر كل منتقد للسياسة التركية الحالية أو المحتملة في خانة الانقلابيين أو الخائنين للدين، الكارهين لأوليائه الصالحين، مع أنهم ينتقدون بعنف بعض ما يرونـه علمانية وخروجـا عن مقتضيات الدين والتدين والخشمة ونحو ذلك. أما المكارثيون الوطنيون، فيصورون -كما في بعض طروحـاتهمـ أن أكثر الشعوب العربية "إخوان"، مع أنـهم في أطـاريـخـ أخرىـ، يـقلـلـونـ منـ شـعبـةـ الإـخـوانـ!ـ هناـ وـهـنـاكـ تـناـقـضـ وـتـهـافـتـ منـهجـيـانـ أـخـلاـقيـانـ،ـ يـتـناـوـيـانـ عـلـىـ اـغـتـيـالـ الـحـقـيـقـةـ.

العرب والانقلاب التركي:

تغيب إلى حد كبير الطروحـاتـ العلمـيةـ والـفـكـرـيـةـ المتـزـنةـ التيـ تعـتمـدـ الأـدـلـةـ وـالـشـواـهدـ فـيـ التـحلـيلـ وـالـخـلوـصـ إـلـىـ نـتـائـجـ مـتـمـاسـكـةـ.ـ وقدـ شـوـهـ هـؤـلـاءـ المـكـارـثـيونـ كـثـيرـاـ مـنـ الـمـسـائـلـ،ـ وـمـنـهـاـ تـوصـيفـ الشـرـائـحـ المـتـفـاعـلـةـ مـعـ الـانـقلـابـ الفـاشـلـ فـيـ تـرـكـياـ،ـ مـعـارـضـةـ وـتـأـيـيدـاـ،ـ فـلـمـ نـظـفـرـ بـجـوابـ عـلـىـ أـسـئـلـةـ كـثـيرـةـ،ـ وـمـنـهـاـ:ـ مـاـ نـسـبـةـ الـمـعـارـضـيـنـ لـلـانـقلـابـ،ـ وـمـاـ نـسـبـةـ الـمـؤـيـدـيـنـ لـهـ؟ـ وـمـاـ دـوـافـعـ كـلـ مـنـهـ؟ـ هـذـهـ أـسـئـلـةـ تـحـتـاجـ إـلـىـ أـبـاحـاتـ مـعـمـقـةـ قـائـمـةـ عـلـىـ اـسـتـقـصـاءـ وـاستـكـشـافـ عـلـمـيـيـنـ دـقـيقـيـنـ.

هـنـاـ أـقـدـمـ تـصـورـاـ أـولـيـاـ،ـ وـهـوـ غـيرـ قـائـمـ عـلـىـ مـسـوحـاتـ وـلـاـ بـيـانـاتـ صـلـبـةـ،ـ فـهـوـ مـجـرـدـ اـسـتـقـراءـ عـامـ،ـ وـلـهـذاـ فـهـوـ أـقـلـ مـنـ "ـأـولـيـ"ـ،ـ وـيـحـتـاجـ إـلـىـ قـدـرـ كـبـيرـ مـنـ التـحـمـيـصـ.

استقرائي العام الأولي حول توصيف الشرائح العربية حيال الانقلاب في تركيا، خلص إلى تصنيفها إلى أربع شرائح:

1- شريحة المعارضين الديموقراطيين للانقلاب؛ تعبـرـ عنـ "ـالـشـرـيـحةـ غـيرـ الـمـلـوـنةـ"ـ،ـ أيـ غـيرـ الـمـؤـدـلـجـةـ،ـ وهـيـ الشـرـيـحةـ الأـكـبـرـ،ـ إذـ تـتـرـاـوـحـ نـسـبـتهاـ فـيـ رـأـيـ ماـ بـيـنـ 70ـ80ـ%，ـ وـيـغـلـبـ عـلـىـ هـؤـلـاءـ الإـيمـانـ بـدـوـلـةـ الـقـانـونـ وـالـمـؤـسـسـاتـ وـبـالـنـهـجـ الـدـيمـوـقـرـاطـيـ،ـ معـ الـقـنـاعـةـ بـأـنـ النـمـوذـجـ التـنـموـيـ التـرـكـيـ حقـقـ قـفـزـاتـ نـوـعـةـ تـسـتـحـقـ الإـشـادـةـ،ـ وـيـتـطـلـعـونـ إـلـىـ قـفـزـاتـ مـشـابـهـةـ فـيـ بـلـدـانـهـمـ.ـ وـلـيـسـ فـيـ هـذـاـ أـيـ مـسـاسـ بـوـطـنـيـتـهـمـ الـحـقـةـ،ـ كـمـاـ يـزـعـمـ "ـالـمـكـارـثـيونـ الـوطـنـيـونـ".ـ

2- شريحة المعارضين المؤدلجين للانقلاب؛ وهذه تمثل "ـالـشـرـيـحةـ الـمـلـوـنةـ دـيـنـيـاـ"ـ،ـ وـلـاـ أحـسـبـ أـنـهاـ شـرـيـحةـ كـبـيرـةـ،ـ فـهـيـ تـتـأـرـجـحـ مـنـ 15ـ إـلـىـ 20ـ%，ـ وـلـكـنـ صـوتـهاـ عـالـ،ـ وـفـيـ هـذـهـ الشـرـيـحةـ مـتـطـرـفـونـ (ـالـمـكـارـثـيونـ الـدـينـيـونـ)،ـ وـرـبـماـ يـجـتـرـحـونـ فـيـ طـرـوـحـاتـهـمـ بـعـضـ مـقـومـاتـ الـوـطـنـيـةـ أـوـ لـاـ يـقـيمـونـ لـهـ بـالـ،ـ مـعـ توـسـلـهـمـ بـسـلـطـانـ الـدـينـ،ـ وـتـسـلـيـطـهـمـ سـيفـ الـنـصـوصـ عـلـىـ الـمـخـالـفـينـ الـمـنـتـقـدـينـ لـ "ـالـمـمـارـسـاتـ السـيـاسـيـةـ الـبـشـرـيـةـ"ـ فـيـ السـيـاقـ التـرـكـيـ.

3- شريحة المؤيدین المؤدلجين للانقلاب؛ وهذه تعكس "ـالـشـرـيـحةـ الـمـلـوـنةـ فـكـرـيـاـ"ـ،ـ وـتـضـمـ الأـطـيـافـ الـفـكـرـيـةـ الـمنـاهـضـةـ لـلـإـسـلامـ الـحرـكيـ،ـ وـتـشـمـلـ أـيـضـاـ الـكـارـهـيـنـ لـعـمـومـ الـمـتـدـيـنـ،ـ وـهـيـ شـرـيـحةـ صـغـيرـةـ،ـ رـبـماـ فـيـ حدـودـ 5ـ%，ـ وـيـنـدرـ أـنـ يـصـدـرـ مـنـهـمـ اـعـتـرـافـ بـمـنـجـزـ تـنـموـيـ أـوـ سـيـاسـيـ فـيـ تـرـكـياـ،ـ مـاـ دـامـ أـنـ رـئـيـسـهـاـ يـمـثـلـ "ـخـصـماـ فـكـرـيـاـ".ـ

4- شريحة المؤيدین المنتفعـينـ للـانـقلـابـ؛ـ وـعـنـيـ بـهـؤـلـاءـ كـلـ الـأـطـرـافـ الـتـيـ تـحـصـلـ عـلـىـ مـنـافـعـ مـباـشـرـةـ أـوـ غـيرـ مـباـشـرـةـ مـنـ الـحـوـكـمـاتـ،ـ سـوـاءـ عـبـرـ التـوـظـيفـ أـوـ التـكـلـيفـ،ـ وـيـشـمـلـ ذـلـكـ الـأـفـرـادـ وـالـكـيـانـاتـ وـالـمـؤـسـسـاتـ،ـ وـقـدـ يـشـكـلـونـ مـاـ نـسـبـتـهـ 5ـ%ـ.ـ وـهـذـهـ

الشريحة تحجب أي معلومة إيجابية في الفضاء التركي، أو تسعى إلى تشويهها، وتعمد إلى اختلاق بعض الأقاويل والإشاعات وترويجهما.

بقي لي التأكيد على أن الوضع العربي الراهن، يستلزم معالجة ناجزة لما نراه من مكارثية متنامية، مع ضرورة تكريس الممارسات العلمية النقدية. ونحن بمسيس الحاجة إلى تمتين العلاقات مع جميع الأشقاء والأصدقاء، وفي المقدمة مع حليفنا الإستراتيجي التركي، في سياق يعلي مصالحنا العليا، ويعزز الوحدة والتماسك والاندماج والسيادة والأمن والتنمية في أقطارنا العربية، وفق رؤى متزنة ناضجة.

الجزيرة نت

المصادر: